هذا هو الإسلام
(٧)

مفهوم السُّنن الربانية

د. رمضان خميس زكى
مدرس التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

تقديم: د. محمد عمارة

مكتبة الشروق الدولية

هذا هو الإسلام

(٧)

مفهوم السُّنن الربانية

دراسة فى ضوء القرآن الكريم

الطبعـــة الأولى

١٤٢٧ هـ - يناير ٢٠٠٦ م



٩ شارع السعادة - أبراج عثمان - روكسي - القاهرة

تليفون وفاكس: ٤٥٠١٢٢٨ - ٤٥٠١٢٢٩ - ٢٥٦٥٩٢٩

Email: < shoroukintl @ hotmail. com >

< shoroukintl @ yahoo.com >

هذا هو الإسلام

(٧)

مفهوم السُّنن الربانية

دراسة فى ضوء القرآن الكريم

د. رمضان خميس زكى

مدرس التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

تقديم: د. محمد عمارة



تمهيد

مقال فى السنن الإلهية

د. محمد عمارة

قبل أكثر من مائة عام، وقف الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده [١٢٦٦ ـ ١٣٢٣هـ ـ ١٨٤٩ ـ ١٩٠٥م] ـ وهو يفسر القرآن الكريم ـ وقفات غير مسبوقة أمام الآيات القرآنية التى تتحدث عن سنن الله الحاكمة لعالم الكون المادى. . ولعالم الاجتماع الإنسانى. . وأفاض فى الحديث عن هذه السنن الحاكمة لحركة الكون. . وسير التاريخ. . وقيام الحضارات وسقوطها. . وأسباب التقدم والتخلف فى الأمم والمجتمعات. . وتداول الازدهار والانحطاط بين الناس. .

ولقد تمنى الإمام محمد عبده ـ يومئذ ـ أن ينشئ المسلمون ـ انطلاقًا من القرآن الكريم ـ علمًا إسلاميًا هو «علم السنن» أو «علم الاجتماع الدينى» كما استخرجوا ـ من القرآن أيضا ـ كل العلوم الشرعية فى حضارة الإسلام.

ولقد أشار الأستاذ الإمام ـ وهو يتحدث عن حاكمية هذه السنن الربانية فى الكون والاجتماع ـ إلى حقيقة فلسفية وعلمية وعقدية بالغة الأهمية، وهى **أن حاكمية هذه السنن ـ التى لا تبديل لها ولا تحويل ـ لا تعنى الجبرية التى تجرد الإنسان من حريته واختياره، وتسخره لقوانين هذه السنن. . وإنما تعنى: أن وعى الإنسان بقوانين هذه السنن وقواعد حركتها هو الذى يجعل الإنسان قادرًا على تسخيرها فى الاتجاه الذى يريد. . ذلك أن كل ما فى هذا الكون ـ بما فى ذلك السنن والقوانين ـ هو مُسخَّر من الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ للإنسان الذى استخلفه الله لحمل أمانة عمارة هذه الأرض وفق الشرائع والقوانين التى وضعها الله. .**

فاكتشاف السنن، والوعى بقوانين حركتها، هو الذى يحقق سيطرة الإنسان عليها، ويجعله قادراً على مغالبتها وتسخيرها فى اداء الامانة التى استخلفه الله للنهوض بها.. بينما الغفلة، غفلة هذا الإنسان عن هذه السنن وغيبة وعيه عن قوانين حركتها هو الذى يجعله ضحية لهذه القوانين التى لا تبديل لها ولا تحويل حتى ولو حسنت نوايا هذا الإنسان، وعاش غارقاً فى بحار الأمنيات والأحلام والأدعية والتوسلات!.. وصدق الله العظيم: ﴿ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب من يعمل سوءا يجز به ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا﴾ [النساء: ١٢٣].

* * *

وغير التميز بالريادة فى الوعى بالأصول القرآنية لهذا العلم - علم السنن الإلهية.. والاجتماع الدينى - تميّز الاستاذ الإمام بالإفاضة فى الحديث عن هذه السنن الإلهية وهو يفسر الآيات القرآنية التى أشارت إليها.. حتى لنستطيع أن "نؤلف" من وقفاته فى هذا المقام «مقالاً فى السنن الإلهية» لا نجد له نظيراً عند غيره من العباقرة الذين تصدوا لتفسير القرآن الكريم.. وكيف لا.. وقد وصف الإمام محمد البشير الإبراهيمى [١٣٨٥هـ - ١٨٨٩ - ١٩٦٥م] تفسير محمد عبده للقرآن بأنه «المنهاج المعجزة».. والتفسير لمعجزات القرآن.. المنبئ بظهور إمام المفسرين بلا منازع.. الذى كان أبلغ من تكلم فى التفسير بيانا لهدى القرآن، وفهماً لأسراره، وتوفيقاً بين آيات الله فى القرآن وبين آياته فى الأكوان.. فكان - هذا التفسير - فيضاً من إلهام الله أجراه على قلب ذلك الإمام وعلى لسانه، بما لم تنطو عليه حنايا عالم ولا صحائف كتاب.. لقد جلا بدروسه فى تفسير كتاب الله عن حقائقه التى حام حولها من سبقه ولم يقع عليها.. فكان آية على أن القرآن لا يُفَسَّر إلا بلسانين: لسان العرب ولسان الزمان»[1].

* * *

نعم.. نستطيع أن «نؤلف» مقالاً مختاراً فى علم السنن الإلهية، من الصفحات العديدة التى أفردها الأستاذ الإمام لهذا المبحث، الذى تفرد به من بين العباقرة الذين تميزوا فى تفسير القرآن الكريم..

لقد قال الأستاذ الإمام - وهو يفسر قول الله - سبحانه وتعالى -: ﴿قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾ [آل عمران: ١٣٧]: «إن

إرشاد الله إيانا إلى أن له فى خلقه سننًا ، يوجب علينا **أن نجعل هذه السنن علمًا من العلوم المدونة»** لنستديم ما فيها من الهداية والموعظة على أكمل وجه ، فيجب على الأمة فى مجموعها أن يكون فيها قوم يبينون لها سنن الله فى خلقه ، كما فعلوا فى غير هذا العلم من العلوم والفنون التى أرشد إليها القرآن بالإجمال ، وبينها العلماء بالتفصيل ، عملاً بإرشاده ، كالتوحيد ، والأصول ، والفقه .

والعلم بسنن الله ـ تعالى ـ من أهم العلوم وأنفعها ، والقرآن يحيل عليه فى مواضع كثيرة ، وقد دلنا على مأخذه من أحوال الأمم إذ أمرنا أن نسير فى الأرض لأجل اجتلائها ومعرفة حقيقتها .

ولا يُحتج علينا بعدم تدوين الصحابة لها ، فإن الصحابة لم يدونوا غير هذا العلم من العلوم الشرعية التى وضعت لها الأصول والقواعد ، وفرعت منها الفروع والمسائل . **وإننى لا أشك فى كون الصحابة كانوا مهتدين بهذه السنن وعالمين بمراد الله من وراء ذكرها** . يعنى أنهم بما لهم من معرفة أحوال القبائل العربية والشعوب القريبة منهم ، ومن التجارب والأخبار فى الحرب وغيرها ، وبما منحوا من الذكاء والحذق وقوة الاستنباط كانوا يفهمون المراد من سنن الله ـ تعالى ، ويهتدون بها فى حروبهم وفتوحاتهم وسياستهم للأمم التى استولوا عليها . وما كانوا عليه من العلم بالتجربة والعمل أنفع من العلم النظرى المحض ، وكذلك كانت علومهم كلها .

ولما اختلفت حالة العصر اختلافًا احتاجت معه الأمة إلى تدوين علم الأحكام وعلم العقائد وغيرهما ، كانت محتاجة أيضًا إلى تدوين هذا العلم ، **ولك أن تسميه علم السنن الإلهية ، أو علم الاجتماع ، أو علم السياسة الدينية . سمّ بما شئت ، فلا حرج فى التسمية .**

ومعنى الجملة ـ [الآية] : انظروا إلى من تقدمكم من الصالحين والمكذبين ، فإذا أنتم سلكتم سبيل الله فعاقبتكم كعاقبتهم ، وإن سلكتم سبيل المكذبين فعاقبتكم كعاقبتهم . وفى هذا تذكير لمن خالف أمر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى أحد . ففى الآية مجارى أمن ومجارى خوف . فهو على بشارته لهم فيها بالنصر وهلاك عدوهم ، ينذرهم عاقبة الميل عن سننه ، ويبين لهم أنهم إذا ساروا فى طريق الضالين من قبلهم فإنهم ينتهون إلى مثل ما انتهوا إليه ، فالآية خبر وتشريع ، وفى طيها وعد ووعيد .

﴿فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾ [النحل : ٣٦] : أى أن المصارعة بين الحق والباطل قد وقعت من الأمم الماضية ، وكان أهل الحق يغلبون أهل الباطل وينصرون عليهم بالصبر والتقوى ، وكان ذلك يجرى بأسباب مطردة ، وعلى طرائق مستقيمة ، يُعلم منها أن صاحب الحق إذا حافظ عليه يُنصر ويرث الأرض ، وأن من ينحرف عنه ويعيث فى الأرض فساداً يُخذل وتكون عاقبته الدمار . فسيروا فى الأرض واستقروا ما حل بالأمم ليحصل لكم العلم الصحيح التفصيلى بذلك ، وهو الذى يحصل به اليقين ويترتب عليه العمل .

والسير فى الأرض ، والبحث عن أحوال الماضين ، وتعرّف ما حل بهم هو الذى يوصل إلى معرفة تلك السنن والاعتبار بها كما ينبغى .

نعم ، إن النظر فى التاريخ الذى يشرح ما عرفه الذين ساروا فى الأرض ورأوا آثار الذين خلوا ، يعطى الإنسان من المعرفة ما يهديه إلى تلك السنن ، ويفيده عظة واعتباراً ، ولكن دون اعتبار الذى يسير فى الأرض بنفسه ، ويرى الآثار بعينه ، ولذلك أمر بالسير والنظر .

ثم أتبع ذلك بقوله : ﴿هذا بيانٌ للناس وهُدى وموعظةٌ للمتقين﴾ [آل عمران : ١٣٨] .

كأنه يقول : إن كل إنسان له عقل يعتبر به فهو يفهم أن السير فى الأرض يدله على تلك السنن ، ولكن المؤمن المتقى أجدر بفهمها ؛ لأن كتابه أرشده إليها ، وأجدر كذلك بالاهتداء والاتعاظ بها .

إن لسير الناس فى الحياة سننًا يؤدى بعضها إلى الخير والسعادة وبعضها إلى الهلاك والشقاء ، وإن من يتبع تلك السنن فلا بد أن ينتهى إلى غايتها ، سواء كان مؤمنًا أو كافرًا ، كما قال سيدنا على : «إن هؤلاء قد انتصروا باجتماعهم على باطلهم ، وخُذلتم بتفرقكم عن حقكم ..» .

*** ومن هذه السنن : أن اجتماع الناس وتواصلهم وتعاونهم على طلب مصلحة من مصالحهم يكون ، مع الثبات ، من أسباب نجاحهم ووصولهم إلى مقصدهم ، سواء كان ما اجتمعوا عليه حقًا أم باطلاً ، وإنما يصلون إلى مقصدهم بشىء من الحق والخير ، ويكون ماعندهم من الباطل قد ثبت باستناده إلى ما معهم من الحق ، وهو فضيلة**

الاجتماع والتعاون والثبات . فالفضائل لها عماد من الحق . فإذا قام رجل بدعوى باطلة ، ولكن رأى جمهور من الناس أنه محق يدعو إلى شيء نافع ، وأنه يجب نصره، فاجتمعوا عليه ونصروه ، وثبتوا على ذلك ، فإنهم ينجحون معه بهذه الصفات . ولكن الغالب أن الباطل لا يدوم ، بل لا يستمر زمنًا طويلاً ؛ لأنه ليس له في الواقع ما يؤيده ، بل له ما يقاومه ، فيكون صاحبه دائمًا متزلزلا ، فإذا جاء الحق ووجد أنصاراً يجرون على سنة الاجتماع في التعاون والتناصر ويؤيدون الداعي إليه بالثبات والتعاون ، فإنه لا يلبث أن يدفع الباطل ، وتكون العاقبة لأهله ، فإن شابت حقهم شائبة من الباطل أو انحرفوا عن سنن الله في تأييده ، فإن العاقبة تنذرهم بسوء المصير .

فالقرآن يهدينا في مسائل الحرب والتنازع مع غيرنا إلى أن نعرف أنفسنا وكنه استعدادنا لنكون على بصيرة من حقنا ومن السير على سنن الله في طلبه وفي حفظه ، وأن نعرف كذلك حال خصمنا ، ونضع الميزان بيننا وبينه ، وإلا كنا غير مهتدين ولا متعظين .

﴿ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين﴾ [آل عمران : ١٣٩] .

كأنه يقول : انظروا في سنن من قبلكم تجدوا أنه ما اجتمع قوم على حق ، وأحكموا أمرهم وأخذوا أهبتهم وأعدوا لكل أمر عدته ، ولم يظلموا أنفسهم في العمل لنصرته ، إلا وظفروا بما طلبوا ، وعوضوا بما خسروا ، فحولوا وجوهكم عن جهة ما خسرتم ، وولوها جهة ما يستقبلكم وانهضوا به بالعزيمة والحزم ، مع التوكل على الله ــ عز وجل ــ .

والحزن إنما يكون على فقد ما لا عوض منه ، وإن لكم خير عوض مما فقدتم ، وأنتم الأعلون برجحانكم عليهم في مجموع الوقعتين ـ بدر وأُحد ـ إذ الذين قتلوا منهم أكثر من الذين قتلوا منكم ، على كثرتهم وقلتكم ـ .

﴿وتلك الأيام نداولها بين الناس﴾ [آل عمران : ١٤٠] : هذه قاعدة كقاعدة **﴿قد خلت من قبلكم سنن﴾** [آل عمران : ١٣٧] ، أي هذه سنة من تلك السنن ، وهي ظاهرة بين الناس ، بصرف النظر عن المحقين والمبطلين .

والمداولة في الواقع تكون مبنية على أعمال الناس ، فلا تكون الدولة لفريق دون آخر جزافًا ، وإنما تكون لمن عرف أسبابها ورعاها حق رعايتها . أي إذا علمتم أن ذلك سنة فعليكم ألا تهنوا ولا تضعفوا بما أصابكم ؛ لأنكم تعلمون أن الدولة تدول .

والعبارة تومئ إلى شيء مطوى كان معلومًا لهم ، وهو أن لكلٍّ دولة ، فكأنه قال : إذا كانت المداولة منوطة بالأعمال التى تفضى إليها ، فعليكم أن تقوموا بهذه الأعمال وتحكموها أتم إحكام . .

وإن العلم إذا لم يصدقه العمل لا يعتد به . . وإن المسلم ما خلق ليلهو ويلعب ، ولا ليكسل ويتواكل ، ولا لينال الظفر والسيادة بخوارق العادات ، وتبديل سنن الله فى المخلوقات ، بل خُلق ليكون أكثر الناس جدًا فى العمل ، وأشدهم محافظة على النواميس والسنن . . . »(٢).

❊❊❊

• السنن الكونية .. والاجتماعية

«لقد كشف الإسلام عن العقل غمة من الوهم فيما يعرض من حوادث الكون الكبير «العالم» ، والكون الصغير «الإنسان» ، فقرر أن آيات الله الكبرى فى صنع العالم إنما يجرى أمرها على السنن الإلهية التى قدرها الله فى علمه الأزلى ، لا يغيرها شيء من الطوارئ الجزئية ، غير أنه لا يجوز أن يُغفل شأن الله فيها ، بل ينبغى أن يحيى ذكره عند رؤيتها ، فقد جاء على لسان النبى - صلى الله عليه وسلم - «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله ، لا يُخسفان لموت أحد ولا لحياته ، فإذا رأيتم ذلك فاذكروا الله» . وفيه تصريح بأن جميع آيات الكون تجرى على نظام واحد ، لا يقضى فيه إلا العناية الأزلية على السنن التى أقامته عليها .

ثم أماط اللثام عن حال الإنسان فى النعم التى يتمتع بها الأشخاص أو الأمم ، والمصائب التى يرزؤن بها ، ففصل بين الأمرين فصلاً لا مجال معه للخلط بينهما ، فأما النعم التى يمتع الله بها بعض الأشخاص فى هذه الحياة ، والرزايا التى يُرزأ بها فى نفسه فكثير منها - كالثروة والجاه والقوة والبنين أو الفقر والضعة والضعف والفقد - قد لا يكون كاسبها أو جالبها ما عليه الشخص فى سيرته من استقامة وعوج ، أو طاعة وعصيان ، وكثيرا ما أمهل الله بعض الطغاة البغاة ، أو الفجرة الفسقة ، وترك لهم متاع الحياة الدنيا ، وكثيرا ما امتحن الله الصالحين من عباده ، وأثنى عليهم فى الاستسلام لحكمه ، وهم الذين إذا أصابتهم مصيبة عبروا عن إخلاصهم فى التسليم بقولهم : ﴿ إنا

لله وإنا إليه راجعون﴾ [البقرة: ١٥٦] فلا غضبُ زيد ولا رضى عمرو، ولا إخلاص سريرة ولا فساد عمل مما يكون له دخل فى هذه الرزايا ولا تلك النعم الخاصة، اللهم إلا فيما ارتباطه بالعمل ارتباط المسبَّب بالسبب على جارى العادة، كارتباط الفقر بالإسراف، والذل بالجبن، وضياع السلطان بالظلم، وكارتباط الثروة بحسن التدبير فى الأغلب، والمكانة عند الناس بالسعى فى مصالحهم على الأكثر، وما يشبه ذلك مما هو مبيَّن فى علم آخر.

أما شأن الأمم فليس على ذلك. فإن الروح الذى أودعه الله جميع شرائعه الإلهية، من تصحيح الفكر، وتسديد النظر، وتأديب الأهواء، وتحديد مطامع الشهوات، والدخول إلى كل أمر من بابه، وطلب كل رغيبة من أسبابها، وحفظ الأمانة، واستشعار الأخوة، والتعاون على البر، والتناصح فى الخير والشر، وغير ذلك من أصول الفضائل، ذلك الروح هو مصدر حياة الأمم ومشرق سعادتها فى هذه الدنيا قبل الآخرة ﴿من يرد ثواب الدنيا نؤته منها﴾ [آل عمران: ١٤٥]. ولن يسلب الله عنهم نعمته ما دام هذا الروح فيها ﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا﴾ [الإسراء: ١٦] أمرناهم بالحق ففسقوا عنه إلى الباطل. ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ [الرعد: ١١]. ﴿سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا﴾ [الأحزاب: ٦٢]. وما أجلَّ ما قاله العباس بن عبد المطلب في استسقائه: «اللهم إنه لم ينزل بلاء إلا بذنب، ولم يُرفع إلا بتوبة»

على هذه السنن جرى سلف الأمة. فبينما كان المسلم يرفع روحه بهذه العقائد السامية، ويأخذ نفسه بما يتبعها من الأعمال الجليلة، كان غيره يظن أنه يزلزل الأرض بدعائه، ويشق الفلك ببكائه، وهو ولع بأهوائه، ماض فى غلوائه، وما كان يغنى عنه عنه من الحق شيء. [1]

• سنن الله فى الغنى والفقر بين الأفراد والأمم

﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجا (٢) ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾ [الطلاق: ٢].

إن الرزق بغير حساب ولا سعى فى الدنيا إنما يصح بالنسبة إلى الأفراد. فإنك ترى كثيراً من الأبرار وكثيراً من الفجار أغنياء موسرين متمتعين بسعة الرزق، وكثيراً من

الفريقين فقراء معسرين ؛ والمتقى يكون دائماً أحسن حالاً وأكثر احتمالاً ومحلاً لعناية الله تعالى به فلا يؤلمه الفقر كما يؤلم الفاجر ، فهو يجد بالتقوى مخرجاً من كل ضيق ، ويجد من عناية الله رزقاً غير محتسب .

وأما الأمم فأمرها على غير هذا ، فإن الأمة التى ترونها فقيرة ذليلة معدومة مهينة لا يمكن أن تكون متقية لأسباب نقم الله وسخطه بالجرى على سننه الحكيمة وشريعته العادلة ، ولم يكن من سنة الله - تعالى - أن يرزق الأمة العزة والثروة والقوة والسلطة من حيث لا تحتسب ولا تقدر ، ولا تعمل ولا تدبر ، بل يعطيها بعملها ويسلبها بزللها . .

• سنن التدافع بين الحق والباطل

وهذا شأن الباطل ، لا يثبت أمام الحق ، فإن أحكام الباطل مؤقتة لا ثبات لها فى ذاتها ، وإنما بقاؤها فى نوم الحق عنها ، وحكم الحق هو الثابت بذاته ، فلا يُغلب أنصاره ما داموا معتصمين به ، مجتمعين عليه . . .[٤]

﴿لتبلونّ في أموالكم وأنفسكم﴾ [آل عمران : ١٨٦] . . . إن الله - تعالى - لم يكفل للمسلمين الحفظ والنصر والسيادة لأنهم مسلمون ، وإنما يكلفهم الجرى على سننه تعالى كغيرهم ، فلا بد لهم من الاستعداد للمدافعة دائما ، وذلك يقتضى بذل المال والنفس . . . وإن الرسول - صلى الله عليه وسلم - لا ينفع أمة قد خالفت السنن والطبائع . فلا تغتروا بوجودكم معه ، مع المخالفة لله وله ، فهو لا يحميكم مما تقتضيه سنن الله فيكم . .[٥]

• سنن الله فى إحياء الأمم وإماتتها

﴿ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون (٢٤٣) وقاتلوا في سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم﴾ [البقرة ٢٤٣ ، ٢٤٤]

. . . والكلام فى القوم ، لا فى أفراد لهم خصوصية ؛ لأن المراد بيان سننه - تعالى - فى الأمم التى تجبن فلا تدفع العادين عليها . ومعنى حياة الأمم وموتها فى عرف الناس

جسيعهم معروف . فمعنى موت أولئك القوم هو أن العدو نكَّل بهم فأفنى قوتهم ، وأزال استقلال أمتهم ، حتى صارت لا تعد أمة ، بأن تفرق شملها ، وذهبت جامعتها ، فكل من بقى من أفرادها خاضعون للغالبين ضائعون فيهم ، مدغمون فى غمارهم ، لا وجود لهم فى أنفسهم ، وإنما وجودهم تابع لوجود غيرهم ، ومعنى حياتهم هو عود الاستقلال إليهم .

وذلك أن من رحمة الله ـ تعالى ـ فى البلاء يصيب الناس أنه يكون تأديبًا لهم ، ومطهرًا لنفوسهم مما عرض لها من دنس الأخلاق الذميمة . أشعر الله أولئك القوم بسوء عاقبة الجبن والخوف والفشل والتخاذل بما أذاقهم من مرارتها فجمعوا كلمتهم ، ووثقوا رابطتهم ، حتى عادت لهم وحدتهم قوية فاعتزوا وكثروا إلى أن خرجوا من ذل العبودية التى كانوا فيها إلى عز الاستقلال ، فهذا معنى حياة الأمم وموتها . يموت قوم منهم باحتمال الظلم ، ويذل آخرون حتى كأنهم أموات ، إذ لا تصدر عنهم أعمال الأمم الحية ، من حفظ سياج الوحدة ، وحماية البيضة ، بتكافل أفراد الأمة ومنعتهم ، فيعتبر الباقون فينهضون إلى تدارك ما فات ، والاستعداد لما هو آت ، ويتعلمون من فعل عدوهم بهم كيف يدفعونه عنهم . قال على كرم الله وجهه : «إن بقية السيف هى الباقية» . أى التى يحيا بها أولئك الميتون . فالموت والإحياء واقعان على القوم فى مجموعهم . . . والحكمة فى هذا الخطاب تقرير معنى وحدة الأمة وتكافلها ، وتأثير سيرة بعضها فى بعض حتى كأنها شخص واحد ، وكل جماعة منها كعضو منه .

﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة : ٢٤٣] . كافة بما جعل فى موتهم من الحياة ، إذ جعل المصائب والعظائم محيية للهمم والعزائم ، كما جعل الهلع والجبن وغيرهما من الأخلاق التى أفسدها الترف والسرف من أسباب ضعف الأمم ، وجعل ضعف أمة مغريًا لأمة قوية بالوثبان عليها ، والاعتداء على استقلالها ، وجعل الاعتداء منبهًا للقوى الكامنة فى المعتدى عليه ، وملجئًا له إلى استعمال مواهب الله فيما وهبت لأجله ، حتى تحيا الأمم حياة عزيزة ، ويظهر فضل الله ـ تعالى ـ فيها .

والمراد بالفضل هنا الفضل العام ، وهو أنه ـ تعالى ـ جعل إماتة الناس بما يسلط على الأمة من الأعداء يتكلون بها بمثابة هدم البناء القديم المتداعى ، والضرورة قاضية ببناء ، فلا جرم تنبعث الهمة إلى هذا البناء الجديد فيكون حياة جديدة للأمة .

تفسد الأخلاق بالأمم فتسوء الأعمال، فيسلط الله على فاسدى الأخلاق النكبات ليتأدب الباقى منهم، فيجتهدوا فى إزالة الفساد وإدالة الصلاح، ويكون ما هنالك من الأمة بمثابة العضو الفاسد المصاب «بالغنغرينا» يبتره الطبيب ليسلم الجسد كله، ومن لا يقبل هذا التأديب الإلهى فإن عدل الله فى الأرض يمحقه منها ﴿وما للظالمين من أنصار﴾ [البقرة: ٢٧٠].

فهذه سنة من سنن الاجتماع، بينها القرآن، وكان الناس فى غفلة عنها، ولهذا قال: ﴿ولكن أكثر الناس لا يشكرون﴾ [البقرة: ٢٤٣] أى لا يقومون بحقوق النعمة، ولا يستفيدون من بيان هذه السنة، أى هذا شأن أكثر الناس فى غفلتهم وجهلهم بحكمة ربهم، فلا تكونوا كذلك أيها المؤمنون، بل اعتبروا بما نزل عليكم وتأدبوا به لتستفيدوا من كل حوادث الكون، حتى مما ينزل بكم من البلاء إذا وقع منكم تفريط فى بعض الشئون، واعلموا أن الجبن عن مدافعة الأعداء، وتسليم الديار بالهزيمة والفرار، هو الموت المحفوف بالخزى والعار، وأن الحياة العزيزة الطيبة هى الحياة المِلّية المحفوظة من عدوان المعتدين، فلا تقصروا فى حماية جامعتكم فى الملة والدين..[6]

• من سنن الاجتماع البشرى: الإملاء للكافرين

﴿إنَّ الذين اشتروا الكُفرَ بالإيمان لن يضُرُّوا الله شيئًا ولهُمْ عذابٌ أليمٌ﴾

[آل عمران: ١٧٧].

... وقد يعرض لبعض الأفكار وهْمٌ فى هذا المقام ويحول فيها صورة ما يستمتعون به من اللذات والقوة وإمكان نيلهم من المؤمنين إذا أذنبوا، كما نالوا منهم يوم أحد بذنبهم وتقصيرهم. فيقول الواهم: آمنا وصدقنا أن هؤلاء سيعذبون فى الآخرة ولا يكون لهم نصيب من نعيمها ولكن، أليسوا الآن متمتعين بالدنيا؟ أليس لهم فيها من القوة ما يمكنهم من الاعتداء علينا؟؟

وقد كشف هذا الوهم قوله ـ تعالى ـ: ﴿ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خير لأنفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثما ولهم عذابٌ مُهينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨] ـ فبيَّن لنا سنة حكيمة من سننه فى الاجتماع البشرى، وهى أن الإنسان يبلغ الخير بعمله الحسن، ويقع

فى الضير بتقصيره فى العمل الصالح وتشميره فى عمل السيئات ، والعبرة بالخواتيم، فكأنه قال : إن هذا الإملاء للكافرين ليس عناية من الله بهم ، وإنما هو جرى على سنته فى الخلق ، وهى أن يكون ما يصيب الإنسان من خير وشر هو ثمرة عمله .

ومن مقتضى هذه السنة العادلة أن يكون الإملاء للكافرين علة لغروره ، وسببًا لاسترساله فى فجوره ، فيوقعه ذلك فى الإثم الذى يترتب عليه العذاب المهين . [١٠]

• سنة التبديل والتغيير

﴿سل بني إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته فإن الله شديد العقاب﴾ [البقرة : ٢١١] .

. . . والآية عبرة للمخاطبين بالقرآن من المؤمنين به ، لا حكاية تاريخية عن بنى إسرائيل . ولكن ، هل يعتبر بها المنتسبون إلى القرآن ؟! وهل يفهمون منها أن ملكهم الذى يتقلص ظله عن رءوسهم عاما بعد عام ، وعزهم الذى تتخطفه منهم حوادث الأيام ما بدلهما الله - تعالى - إلا بعد ما بدّلوا نعمته عليهم فى قوله : ﴿واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمت الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا﴾ [آل عمران : ١٠٣] - ﴿ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ [الأنفال : ٥٣] .

كلا ! إنهم لم يفهموا هذا ولو تغنوا وترنموا بهذه الآيات فى كل مأتم وكل موسم ، وإن رؤساءهم لا يمقتون أحداً مقتهم لمن يذكرهم به ، وإن أكثر عامتهم تبع لهؤلاء الرؤساء كما كان بنو إسرائيل على عهد نزول القرآن ، وإنا لنعلم أن الساكتين منهم على جميع ما مُنى به المسلمون من البدع والخرافات والفسوق والعصيان يتفقون مع المدافعين عن الفاسقين والمبتدعين على إيذاء الواعظين الناصحين ، باسم المدافعة عن الدين . [١١] . . .

• السنن الجارية .. والسنن الخارقة

﴿هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء (٣٨) فنادته

الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحيى مصدقا بكلمة من الله وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين﴾ [آل عمران : ٣٨، ٣٩]

. . إن زكريا لما رأى ما رآه من نعمة الله على مريم فى كمال إيمانها وحسن حالها، ولا سيما اختراق شعاع بصيرتها لحجب الأسباب، ورؤيتها أن المسخر لها برزق من يشاء بغير حساب، أخذ عن نفسه، وغاب عن حسه، وانصرف عن العالم وما فيه، واستغرق قلبه فى ملاحظة فضل الله ورحمته، فنطق بهذا الدعاء فى حال غيبته. وإنما يكون الدعاء جديراً بأن يستجاب إذا جرى به اللسان بتلقين القلب فى حال استغراقه فى الشعور بكمال الرب. ولما عاد من سفره فى عالم الوحدة إلى عالم الأسباب ومقام التفرقة، وقد أذن بسماع ندائه، واستجابة دعائه، سأل ربه عن كيفية تلك الاستجابة، وهى على غير السنة الكونية، فأجابه بما أجابه، وذلك قوله عز وجل: ﴿فنادته الملائكة﴾ [آل عمران : ٣٩] (١)

إن فلق البحر كان من معجزات موسى، وقد قلنا فى [رسالة التوحيد] إن الخوارق الجائزة عقلاً، أى التى ليس فيها اجتماع النقيضين ولا ارتفاعهما، لا مانع من وقوعها بقدرة الله ـ تعالى ـ على نبى من الأنبياء، ويجب أن نؤمن بها على ظاهرها.

ولا يمنعنا هذا الإيمان من الاهتداء بسنن الله ـ تعالى ـ فى الخلق، واعتقاد أنها لا تتبدل ولا تتحول، كما قال الله ـ تعالى ـ فى كتابه الذى ختم به الوحى على لسان نبيه الذى ختم به النبيين، فانتهى بذلك زمن المعجزات، ودخل الإنسان بدين الإسلام فى سن الرشد، فلم تعد مدهشات الخوارق هى الجاذبة له إلى الإيمان وتقويم ما يعرض للفطرة من الميل عن الاعتدال فى الفكر والأخلاق والأعمال كما كان فى سن الطفولة النوعية، بل أرشده ـ تعالى ـ بالوحى الأخير ـ القرآن ـ إلى استعمال عقله وتحصيل الإيمان بالله وبالوحى، ثم جعل له كل إرشادات الوحى مبيّنة معلّلة مدلّلة حتى فى مقام الأدب ـ كما أوضحنا ذلك فى [رسالة التوحيد].

فإيماننا بما أيد الله ـ تعالى ـ به الأنبياء من الآيات لجذب قلوب أقوامهم الذين لم ترتق عقولهم إلى البرهان، لا ينافى كون ديننا هو دين العقل والفطرة، وكونه حتّم علينا الإيمان بما يشهد له العيان، من أن سننه ـ تعالى ـ فى الخلق لا تبديل لها ولا تحويل.

وزعم الذين لا يحبون المعجزات من المتهورين أن عبور بنى إسرائيل البحر كان إبان الجزر، فإن فى البحر الأحمر زقاقًا إذا كان الجزر الذى عهد هناك شديداً تيسر للإنسان أن يعبر ماشيًا، ولما اتبعهم فرعون بجنوده ورآهم قد عبروا البحر تأثرهم، وكان المد تفيض ثوائبه - وهى المياه التى تجرى عقيب الجزر - فلما نجا بنو إسرائيل كان المد قد غطى وعلا حتى أغرق المصريين.

تحقق إنعام الله على بنى إسرائيل يتم بهذا التوفيق لهم والخذلان لعدوهم، ولا ينافى الامتنان به عليهم كونه ليس آية لموسى ﷺ، فإن نعم الله بغير طريق المعجزات أعم وأكثر.

كذا قالوا - [المتهورون.. المنكرون للمعجزات].

ولكن، يدل على كونه آية له - [لموسى] - وصف كل فرق بأنه كالطود العظيم. وإذا تيسر تأويل كل آيات القصة من القرآن فإنه يتعسر تأويل قوله تعالى - فى سورة الشعراء - ﴿فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم﴾ [الشعراء: ٦٣].

وهو الموافق لما فى التوراة..[١٠]

❊ ❊ ❊

﴿ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب من يعمل سوءا يجز به ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا﴾ [النساء: ١٢٣].

وإذا طبقنا المسألة على سنة الله التى لا تبديل لها ولا تحويل، علمنا أن مصائب الدنيا تكون جزاء على ما يقصر فيه الناس من السير على سنن الفطرة وطلب الأشياء من أسبابها، واتقاء المضرات باجتناب عللها ﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم﴾ [الشورى: ٣٠][١١]

.. إن القول بنفى الرابطة بين الأسباب والمسببات جدير بأهل دين ورد فى كتابه - [الإنجيل]: أن الإيمان وحده كاف فى أن يكون للمؤمن أن يقول للجبل: تحوّل عن مكانك، فيتحول الجبل!.. يليق بأهل دين تُعد الصلاة وحدها، إذا أخلص المصلى فيها، كافية فى إقدارة على تغيير سير الكواكب وقلب نظام العالم العنصرى!..

وليس هذا الدين هو الإسلام.

دين الإسلام هو الذى جاء فى كتابة: ﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم﴾ [التوبة: ١٠٥] - ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل﴾ [الأنفال: ٦٠]، ﴿سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا﴾ [الأحزاب: ٦٢] وأمثالها.

وليس من الممكن لمسلم أن يذهب إلى ارتفاع ما بين حوادث الكون من الترتيب فى السببية المسببية إلا إذا كفر بدينه قبل أن يكفر بعقله! . . »[١٢].

***

هكذا تحدث الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده عن علم السنن الإلهية - علم الاجتماع الإسلامى . . والسياسة الدينية . . فكان أول داعية لتأسيس هذا العلم ، الذى ما زال ينتظر الاجتهادات والإبداعات ، التى تحقق أمنية الأستاذ الإمام ، التى تمناها قبل أكثر من قرن من الزمان ! ولما كان هذا الكتاب الذى نقدم بين يديه - [مفهوم السنن الربانية] للدكتور رمضان خميس زكى - هو - فى حدود ما نعلم - من أوفى الدراسات التى عرضت لهذا المبحث . . ومن أدق هذه الدراسات . . حتى إنه ليتبئ بميلاد كاتب واعد ، وباحث يشق طريقه بجدارة ملحوظة ومتميزة فى حياتنا الفكرية والعلمية . . فلقد آثرنا أن يكون التقديم لهذا الكتاب - عن [مفهوم السنن الربانية] - ذلك المقال الذى اخترنا فقراته ، وألفنا بينها ، من إبداعات الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده . المؤسس الحقيقى لهذا العلم الإسلامى فى تراثنا الحديث . .

والله نسأل أن ينفع بهذا الكتاب . . وأن يزيد فى العطاء العلمى لكاتبه . . إنه - سبحانه وتعالى - خير مسئول وأكرم مجيب

د . محمد عمارة

***

الهوامش

(١) [آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي] جـ١ ص٣٢٧، ٣٤٣ جـ٢ ص٢٥٢. جمع وتقديم: د. أحمد طالب الإبراهيمي. طبعة بيروت - دار الغرب الإسلامي - ١٩٩٧م.

(٢) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] جـ٥ ص٩٩-١٠٥. دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة. طبعة بيروت - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - ١٩٧٢م.

(٣) المصدر السابق. جـ٣ ص ٤٥٤، ٤٥٣.

(٤) المصدر السابق. جـ٤ ص ٤٢١، ٥٤٢.

(٥) المصدر السابق. جـ٥ ص ١٣٠، ١٤٧.

(٦) المصدر السابق. جـ٤ ص ٦٩٦، ٦٩٥، ٦٩٢.

(٧) المصدر السابق. جـ٥ ص ١٣٨.

(٨) المصدر السابق. جـ٤ ص ٥٣٧.

(٩) المصدر السابق. جـ٥ ص ٣١.

(١٠) المصدر السابق. جـ٤ ص ١٨٣، ١٨٤.

(١١) المصدر السابق. جـ٥ ص ٢٧٨.

(١٢) المصدر السابق. جـ٣ ص ٥٠٢.

* * *

مفهوم السنن الربانية

• قبل أكثر من مائة عام، دعا حكيم الإسلام الشيخ محمد عبده علماء المسلمين إلى أن يستخرجوا من القرآن الكريم «علم السنن الإلهية» الحاكمة لحركة الكون وسير الاجتماع الإنسانى.. وذلك لاكتشاف قوانين التقدم والنهوض.. وأسباب التخلف والانحطاط.. حتى نأخذ بالأولى ونحذر الثانية..

• ومنذ ذلك التاريخ، تبلورت - فى الفلسفات الأخرى - علوم للاجتماع - پروتستانتية.. وليبرالية.. وماركسية.. وفى لاهوت التحرير.. وغيرها كثير.. بينما ظلت الدراسات شحيحة جدًا فى ميدان بلورة علم الاجتماع الإسلامى!..

• وإذا كان الحديث عن صحوة إسلامية.. ومشروع حضارى إسلامى، سيظل حديثًا منقوصًا دون البناء لأسس هذا العلم الإسلامى الهام، فإن هذه الدراسة المتميزة والممتازة التى يحملها هذا الكتاب، هى إسهام كبير فى هذا الميدان..

وهى تعلن عن كاتب ومفكر واعد بالخير الكثير إن شاء الله.

د. محمد عمارة

